إبداعات عربية
قصص

علي طه النوباني

جامعو الدوائر الصفراء

وزارة الثقافة

ميزوفة

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(١٧٠/١/٢٠٠٤)

٨١٣٫٩

النوباني، علي طه
جامعو الدوائر الصفراء/ علي طه النوباني .ـ جرش :
المؤلف، ٢٠٠٤
(٨٠) ص.
ر.إ.:١٧٠/١/٢٠٠٤.
الواصفات:/القصص العربية/القصص القصيرة//العصر الحديث

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

رقم الإجازة المتسلسل ١٧٨/١/٢٠٠٤
ISBN 9957-09-177-8 (ردمك)

☐ جامعو الدوائر الصفراء: علي طه النوباني
☐ الطبعة الأولى : 2004
☐ جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©

أزمنة ®
أزمنة للنشر والتوزيع
تلفاكس : ٥٥٢٢٥٤٤
ص.ب : ٩٥٠٢٥٢
عمّان ١١١٩٥ الأردن
شارع وادي صقرة، عمارة الدوحة، ط ٤
E.mail:Elias@Farkouh.Net

All rights reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any mean without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

(الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة)

☐ لوحة الغلاف: نصر عبدالعزيز (الأردن).
☐ تصميم الغلاف: أزمنة (الياس فركوح) .
☐ الترتيب والإخراج الداخلي: أزمنة (إحسان الناطور).
☐ تاريخ الصدور: تشرين الأول 2004.

إبداعات عربية

علي طه النوباني

جامعو الدوائر الصفراء

قصص

الفهرس

الإهداء ٩

حشرات ١٣

الحزام ٣٧

أحلام الظل والنور ٤١

جزيرة البرنس خالص ٤٩

جامعو الدوائر الصفراء ٥٧

قاعة فارغة ٦٣

خصخصة ٧١

الإهداء

إلى الأحبَّة :

غَيْلان ... مُظَفَّر ... مَعْبَدْ ... لينا ...

مع اعتذاري...

علي النوباني

٢٠٠٣/١٢/٢٩

حشرات

«بالنسبة للعالم فأنا أعتبره ليس بيتاً ، بل مستشفى ومكاناً ليس للعيش بل للموت فيه»

سير توماس براون

حشـــرات

(١)

فجأةً غمرني ضوءٌ باهر أَعـادَ إلـيَّ أجـواءَ الغابـة بعـدَ أنْ يَنْقَشِعَ الغَيمُ وَتَنْجَلي العاصِفة، أقَمْتُ في هذا الصندوق الخشبيِّ المحكم الإغلاق فترةً زمنيةً لا أعرفها تساوى فيها الليل بالنهار ، ولفَّتني حُلكة الظلام الدائم ٠

وها أنا الآنَ بينَ يَدَي شَخْصٍ لا أعرفـه ؛ ألـتَهِمُ الضـوءَ كمـا أسـدٍ جائعٍ يَنْقَضُّ عَلى ظَبيٍ غَضّ ؛ أبحثُ ببلاهَةٍ عَنّـي في واقـعٍ مُخْتَلِـفٍ وَمُبْهَم ؛أنهالُ باللَّعناتِ عَلى ذلِكَ اليومِ الَّذي فرَّقني عن أمّي الشجرة ،وأجوسُ في ذاكرتي المهشَّمة ؛لعلّي أُمسِكُ بتلك اللحظةِ الشاردةِ مِـن ماضٍ سَرَقَتْهُ الألوانُ والصُّوَرُ المزيَّفة ٠

أنذا أُنْقَلُ كَما نَعْشٍ بائسٍ إلى درجٍ خَشَبيٍّ في طاولةٍ تَعْلوها أجْهزَةٌ مُخْتَلِفَةٌ مَمْلوءَةٌ بالأزرارِ والشاشاتِ ، وأسمعُ طقطقةً وصفيراً مُتَقَطِّعَيْنِ وباهِتين يَخْتَلِطانِ كِلاهُما بهَمْهَمَةٍ يُصدِرها أولئك الجالسونَ مقابل هذه الطاولة ، يأتونَ من على مقاعدهم فُرادى يتحادثون بكلماتٍ مقتضبةٍ مع الرَّجُلِ الجالِسِ قُرْبي مِنْ خلال ثقبٍ دائريٍّ في اللوحِ الزجاجيِّ المثبَّتِ على مقدمة الطاولة ، يتبادلون الأوراقَ ثمَّ يحصُلُ كلٌّ منهم على كميَّةٍ من الأوراقِ المزخرفةِ، البعضُ يملأ حقيبةً كاملةً والبعضُ رزمةً أو رزمتين والبعضُ الآخرُ ورقةً أو ورقتين ... وهكذا ...

وأخيراً امتَدَّتْ يَدُ الجالِسِ عَلى كُرْسِيِّهِ وراءَ الدُّرجِ الَّذي أقيمُ فيه ، وَسَحَبَني ضمنَ حُزْمَةٍ من الأوراق لِيَسْتَقِرَّ بيَ الأمرُ في حقيبةٍ سوداءَ يَحْمِلُها شخصٌ مُتَناسِقُ الَهْيئةِ واثقُ العينين .

(٢)

منذُ عامَيْن تقريباً وأنا أتنقَّلُ من عمل لآخر ...

لا أعرفُ كلَّ الأسبابِ الَّتي دَفَعَتْني لِدِراسَةِ هذا التَخَصُّص الغَريب . فقد خَرَجْتُ قبل عشر سنواتٍ تقريباً من منزل والدي وكانَ قد استقرَّ أمْرُهُ عَلى أن أتعلَّمَ الطبَّ ، أمّا والدتي فقد كانتْ أميَلَ إلى الهندسة؛ عَلى أنَّهم لم يَكونوا يُمَيِّزونَ بين الطبِّ والهندسةِ إلا من ناحِيَةِ وَقْعِ الكلمة على مَسامِعِهم .

وجدتُ نفسي في مدينةٍ كبيرةٍ لا أكادُ أعرف لها حدوداً ، تصلُ بعضُ مبانيها إلى مائة طابق ، وعددٌ كبيُر من البشر يتحرَّكونَ في كلِّ اتِّجاه؛ لا يوقِفُهُم ليلٌ ولانهار ، حَرَكَةٌ دائبةٌ كَخَلِيَّةِ نَحْلٍ في حُقول قريَتي المنسيَّة ذَكَّرَتْني بلَيْلَةٍ باردةٍ مُقمرة كانَ مَنْزلنا فيها صامِتاً كَصَخْرَةٍ في صَحارى الموت . خَطَرَ لي في تلك الليلةِ أن أذرعَ الشارعَ جيئةً وذهاباً ، وأن اكسرَ جَبَروتَ الليل ، فَتَحْتُ البابَ بهدوءٍ لكنَّهُ أصدرَ أزيزاً حاداً ، صرخَ شقيقي الذي كانَ مُلتَفّاً في فِراشِهِ كقطٍّ في كومةٍ من القَشّ :"حَرامي ...حَرامي ..." وفي أقلّ

من ثانيةٍ كانَ مُسَدَّسُ والدي مُصَوَّباً نَحْوَ يافوخي ؛ فاستَدرْتُ نحوَهُ بهُدوءٍ ...

ـ "أهو أنت ؟"

ـ " أنا .. نعم ..أنا .."

ـ " ما الَّذي يُخْرِجُكَ الآنَ يا ابن ال... "

ـ" خَطَرَ لي أن أنْظُرَ إلى النُّجوم وأن ..."

قَهْقَهَ والدي حتّى ارتجتْ أركانُ المنزل ...

ـ " نجوم ... ؟! أخرجْ أيُّها الحَشَرَة... ساهِرْ قَناديلَ الحصّادين وذُبابَ مزبلةَ القريةَ".

أيُّ نابضٍ مجنون يقبع تحتَ جُمْجُمَتي البلهاء لِتَقْفِزَ مِن بين كَتِفَيَّ إلى عَفاريت الليل ؛ أتَلَمَّسُ قِنديلَ الحصّادين وَطَنينَ الذُّباب ، أين أنتُم يا أهلَ قريتي .. .. ماذا تفعلون .. يَتَسَمَّرُ الواحدُ منكم أمام هذا الصندوق الَّذي يُسمّونَهُ (تلفزيون) ، تَماثيلُ مِن حِجارَة تَدورُ في فَلَك الصمت ثُمَّ تَأوونَ إلى فِراشٍ تَتَعَفَّنُ فيهِ أجْسادُكُم وتَنْخَرُكُمْ مَزاريبُ الليل .. ..

وجدتُ نفسي أمامَ خياراتٍ لا حصرَ لها .. الطبُّ .. الهندسةُ .. الرياضياتُ .. البيولوجيا .. علم الحشرات .. وغير ذلك ... ولا أدري لماذا تَوَقَّفْتُ كثيراً عند علم الحشرات ، سرعانَ ما تَذَكَّرْتُ قنديل الحصّادين .. مَمْلَكَةَ النمل .. الحركة الدائبة .. الحياة .. خلايا النحل .. وذباب مزبلة قريتنا .

(٣)

أوّاهِ يـا أمّـي الشـجرة ..أيَّتُهـا الراسـخةُ في أعمـاقِ الأرض المتدةُ نحو عنانِ السماء ، مـا أغـربَ زمـني الجديـد .. أنـذا قطعـةٌ ورقيةٌ مزركشةٌ بالألوانِ والصُّور في جَيْبِ قميصِ شَخْصٍ يجلسُ وراءَ طاولةٍ مستديرة ، أَلَحُ حولَهُ عدداً من الطاولاتِ المشابهـةِ والَّتي يَجْلِسُ حولها أناس آخَرون .. الإضاءةُ خافتةٌ والمكانُ هادئ ، وأنـا تأخُـذُني قُشْعَريرةُ الحنَينِ إليكِ يا أمّي ..

وفجأةً اشتعلَ المكـانُ بالتصـفيق ، لَعْلَعَـت الأضـواءُ مختلفـةُ الألـوانِ ، أخَـذتْ طبـولُ الفرقـةِ الموسـيقيةِ تجلجِـلُ مصـدرةً صـخباً وضجيجاً شديدين . كانت العُيونُ مُسَلَّطَةً عَلى بـابٍ مُجـاور للفرقـةِ الموسيقيةِ عليهِ ستارةٌ حمراءُ من القماشِ الأملسِ اللامع ؛ سرعانَ مـا انفضَّتْ عن امرأةٍ ترتدي ثوباً طويلاً مفتوحاً من نحرها حتّى أخمـصِ قدميها . سارَتْ مَيْساً حَتّـى عَلَـتْ منصَّـةً أمـامَ الفرقـةِ الموسـيقيَّةِ ، وانحنتْ مراتٍ عديدة فانطلقَ التصـفيرُ والتصـفيقُ ... تَرَكَـتْ ثَوْبَهـا يَنْسابُ عَلى جَسَدِها الأملسِ البضِّ حتّـى سَـقَطَ علـى الأرض فَبَـدَتْ

(شرابيش) ثوبٍ آخرَ يُغَطّي خُمْسَ جَسَدِها تقريباً ؛ ويُبدي نِصفَيْ كُرَتَيْنِ في أعلى صدرها وأخرَيَيْنِ في مُؤَخِّرَتِها .

أَخَذَتْ تَهُزُّ وسْطَها بصورةٍ مُتَناغِمَةٍ مع الصَّخَبِ الَّذي تُصْدِرُهُ الفرقةُ الموسيقيَّةُ ، فَدَبَّ الحَماسُ في الجُمْهور وهاجوا وماجوا ...

الرجلُ الَّذي كنتُ قابعةً في جيبِ قميصِه نَهَضَ مُتَرَنِّحاً بعدَ أن شَرِبَ أكثرَ من كأسٍ يحتوي محلولاً أصفر اللون ؛ مدَّ يدهُ في جيبِ قميصهِ فَسَحَبَني مع رُزْمَةٍ من مَثيلاتي وَتَقَدَّمَ نَحْوَ تلك المرأة ... قامَ بإسْقاطِنا سُقوطاً حُرّاً فَوْقَ رأسِها فاشتَدّتْ حِدَّةُ التصفيق .

عَلِقتُ بخُصْلَةٍ من شَعْرها ، وسرعانَ ما هزَّت وسطها فَهَوَيْتُ عَلى جَسَدِها مُلامِسَةً صَدْرَها ثمَّ خصرها إلى أن رَكَلَتْني بِرِجْلِها ضِمْنَ حَرَكاتِها الرَّتيبة ...

استَقَرَّ بيَ الأمرُ على أرضيّةِ المنصَّة ، وبينما كانتْ قَدَما تلك المرأةِ تَدوسُني بينَ الفينةِ والأخرى سَمِعْتُ صَهيلَ الصَّبايا وقهقهةَ الرجالِ وقرعَ الكؤوس .

انطَفَأَتِ الأضواءُ الساطعةُ وَبَقِيَ ضَوْءٌ خافِتٌ ، فَبَدا المكانُ مُوحِشاً بَعْدَ أنْ فارَقَهُ رُوّاده ... اقتَرَبَ من المنصَّةِ رجلٌ مهيبُ الطلعةِ وآخرُ بائسُها ، قاما بجَمْعِنا عن الأرضِ بعنايةٍ. ... الرجلُ المَهيبُ قلَّبنا ورقةً ورقةً ثمَّ سَحَبَني من بين الأوراقِ وأعطاني لذلكَ البائس.

ـ هذه دفعةٌ من الحسابِ ،انصرف الآنَ وتَعودُ غداً في نفسِ الوقت .

ـ قَرَّبَني البائسُ من شَفَتَيْهِ كأنَّما يُقبِّلُني ثمَّ ضَغَطَ عليَّ في يَدِهِ وَمضى خارجاً ...

أنذا يا أمّي الحبيبةُ أُداسُ ألفَ مرَّةٍ بعد أن كُنتُ أستَقي شُموخي من عَظَمَتِكِ وشُموخِك . ثمَّ أُقَبِّلُ كَصَنَمٍ مُقدَّسٍ في دائرةٍ متناقضةٍ عجيبة ...

(٤)

كـــان اســـتقبالاً حـــافِلاً بـــادَلَني فيـــهِ الجَميـــعُ القُـــبلاتِ والابتسامات وَمَشاعِرَ الفخر والاعتزاز ... لكنَّ ما نغَّـصَ علـيَّ هـو أنَّ الجميعَ ناداني بلقب دكتور . قلتُ لهم ببساطةٍ : لقـد حصـلتُ علـى درجة الماجستير في علم الحشرات ... فلا تنادوني بلقب دكتور ...

عَيْنا والدي شَخَصَتا إلى الأعلى ؛ شَـهَقَ بمَـرارَةٍ ولْـم يَنْـبَسْ ببِنْتِ شَفَة ، أما أمّي فقد ضَرَبَتْ يَدَها على صَدْرها بقـوَّةٍ وصـرختْ : حَشَـرات ؟؟ أمّـا الضُّـيوف فقـد تَعالَـتْ قَهْقَهـاتُهم إلى كَبـدِ السـماء وأخَذوا يُبْدونَ حَرَكاتٍ تَنُمُّ عنْ الشَّماتَةِ والرَّثاء . .

في اليوم التـالي جـاء خـالي بكوفيَّتـهِ الَّـتي يَجْمَعُهـا عَلـى يافوخِهِ كَمـا دَحْنونَـةٍ نَبَتَـتْ فـوقَ صَـخْرَة . زمَّ شَـفَتَيْهِ العَريضَـتَيْن ليُخْفِيَ ابتسـامةً سـاخرةً ، وَفَتَحَ كيساً ورقيّاً : لَقَدْ جِئْتُكَ بِهَديَّةٍ يـا خالُ . . . إنَّهُما زجاجتان ، جَمَعْتُ لَكَ في الأولى سِرْباً مـن الـدَّبابير ، أمّا الثانيةُ فَفيهـا غَيْـرُ قَليـلٍ مِـن الخَنـافِسِ والصَّراصير وقناديـل الحصّادين ، لَعَلَّكَ يـا خـالُ تُجْـري عَلَـيْهِنَّ تَجاربَـكَ لِتَحْصُـلَ علـى

درجـة الـدكتوراة ؛ فَيَصْـحو والـداك مـن إغمائهمـا . . . وانْفَجَـرَ ضـاحكاً كما فَعَلَ جَميعُ الحاضرين ، أمّا والِدي فَقَدْ أطْـلَقَ تنهيـدةً حزينةً وقَطَبَتْ ملامِحُهُ وَلاذَ بالصمت .

خَرَجْتُ من القريةِ مهزوماً ، وَتَبعَني كـلُّ أطفالِهـا يَطْرُقـونَ عِصِيَّهُم على عُبُواتِ التَّنكِ الفارغةِ وَيُنْشِدون : "أبو الصراصير احذرْ قرصَ الدبابير . . . أبو الذُّباب اسمعْ صوت الغراب ... أبو الخنافس ... تمرّغ بالترابْ " .

أينَ أنتِ يا قَرْيَتي الأثيرة !! التوتةُ الرائعةُ الـتي مارَسْـتُ مع أقْراني الصِّغار أجْمَلَ ألعابي في ظِلِّها لمْ تَعُـدْ موجـودةً ، وأكـادُ لا أعرفُ مكانَها تَماماً لكثرةِ مـا تَلاصَـقَت البُيـوتُ الإسمنتيـةُ في ذلـك الموقـع ... وغابـةُ البلـوط المجـاورةُ للقريـةِ أصْـبَحَتْ الآنَ مهجـورةً بسببِ الرائحةِ المنبعثةِ من مَحَطَّةِ التنقيةِ الَّتي أُقيمَـتْ بجوارهـا ... أمّا فاطمةُ الَّتي أختزنُ فيها ذاكرةَ انطلاقةِ الشباب؛ فقالوا أنَّ رَجُـلاً مِن المدينةِ قد تَزَوَّجَها وَرَحَلَتْ مَعَه ...

(٥)

الرجلُ الذي كنتُ قابعةً في جيبِ قميصهِ حكَّ أنْفَـهُ وأجـابَ ابنه الصغير :" ربَّما يُصـنعُ الـورقُ مـن الأخشـابِ يـا بُـنيّ ... هكـذا قرأتُ ذاتَ مرّة ... "

رفع الصبيُّ رأسَهُ بعدَ أن أطالَ النظرَ إلى سَـفينتهِ الوَرَقِيَّـةِ : ياه... هل هذا معقول !!

نعم يا بُنَيّ فربَّما كانتْ سفينتكَ هذه غُصناً في شجرةٍ عظيمةٍ قربَ نهرٍ متدفقٍ في غابة مطيرة !!!

أوّاهِ يا أمّي الشجرة ، لقد أصابَ هذا الرجلُ كبدَ الحقيقة ، أين أصبح الآنَ كلُّ جزءٍ منكِ ؟ الصناديق الحديديَّـةُ المقفلـةُ بإحكـام ... المَحافِظُ الجلْدِيَّةُ الرَّخيصَةُ مِنهـا والأنيقـة ، والجُيـوبُ المختلفـة تلك التي تأتي علـى الصـدر أو في المـؤخِّرة ، الممـزَّقُ منهـا والجديـد المُعَطَّر ، والعدد الهائلُ من البشر الَّذين تَنْتَشِرينَ بينهم ...

لم تُفْلِحْ الصـناديقُ المقفلـةُ ولا المَحـافِظُ الجلديَّـةُ الأنيقـةُ ولا حتـى الجُيـوبُ الـتي تفـوحُ منهـا رائحـةُ العَـرَقِ أو رائحـةُ العطـور

المصطنعةِ في إطفاء وميضِ الـذاكرة ... الجـدارُ الشـفيفُ مـن الرُّطوبـةِ على ذلك النُّتوءِ البارز في ساقِ أمّي الشجرة ؛ صُـوَرٌ مُكَبَّـرَةٌ في أجـزاءَ مِنها ومُصغَّرةٌ في أجزاءَ أخرى ... نَحْـلٌ وَنَمْـلٌ وذُبـابٌ وبعـوض . . . والأفـاعي المرقَّطـةُ الملسـاءُ تَلْتَـفُّ علـى السـيقانِ الطَويلـةِ ، وأوراقُ الأشجارِ المتعبةُ تَسْتَقِرُّ عَلى سطحِ المستنقع . تَتَطاوَلُ الأشجارُ فتتَّسـعُ رُقْعَةُ المشاهَدَة وَتَظْهَرُ قُبَّةُ السماءِ الزرقاءُ خلفيَّةً للأغصانِ الكثيفة ...

ساقُ أمّي كانَ الأجملَ والأحلى إلى أن جاءَ ذلك اليـوم...

داهَمَني أزيزٌ قويٌّ وأصواتٌ رهيبةٌ مختلفةٌ كانَتْ تَقْتَرب شيئاً فشيئاً ... ورَأيْتُ الأشجارَ تتهاوى ؛ الواحدةُ تلوَ الأخـرى ، فَتَحوَّلَ الأفقُ أمامي إلى صَفْحَةٍ خاويَةٍ إلاّ مِن هذه الكُتَلِ الحَديديَّـةِ المحْمولَةِ على حَلَقاتٍ سوداءَ عَرَفْتُ فيما بعدُ أنَّها النـاقلاتُ الَّـتي سَتَحْمِلُنا إلى حيثُ يُريدون .

عندما وَضَعَ ذلك الرجلُ آلتَهُ المرعِبةَ على أسْفَلِ سـاقِ أمّـي أخَذني شعورٌ غريبٌ ، أحْسَسْتُ بأنّي مُقْبِلَةٌ على ظُلْمَةِ الدُّهور كيْ أتَعَفَّنَ في تُرَهاتِ اللاّنهاية ، وعندما تَهالَكَتْ أمّي اقْتَرَبْـتُ سَـريعاً

من مَشْهَدٍ طالما تأمَّلتُهُ حتّى عانَقْتُهُ عِناقاً مريراً .ثمَّ وَدَّعْتُهُ إلى حيثُ رَفيقاتي في الشاحِنَة الرَّهيبة .

سيقانُ الأشجارِ الَّتي كانتْ بالأمسِ باسِقَةً تُطاولُ السماءَ مُلْقاةٌ الآنَ في هذا الصندوق الكبير المتحرِّك . هَديرُ الشاحِنةِ القَويّ ... القُبَّةُ الزرقاءُ الَّتي تعلو الأفقَ فوقنا ؛ ومرارةُ الذُلِّ والانكِسار ... التَمَدُّدُ بشَكْلٍ أفُقُيٍّ هَشٍّ بعدَ الشُموخِ والرُّسوخِ في الأرض .

الجدار الشَّفيفُ يَخْتَفي شيئاً فشيئاً وتَنْجَلي الآنَ فَجاجَةُ الجَفافِ والقَسْوَة ، صَرْصَكَةُ الحَديد وأزيزُ البَراغي الصَّدئة ، وها هِيَ أمّي الشجرة الراسِخَةُ في أصول الأرض تُجرِّبُ التَجْزئَةَ والارتِحالَ ، تَتَجَرَّدُ من أغصانِها وَفُروعِها وظِلالِها الوارفة ، وتَهْرُسُها مَكابسُ مَعْدَنِيَّةٌ ذاتُ حَرَكَةٍ مُنْتظمةٍ مَقيتة .

النُّتوءُ المغَلَّفُ بجِدارٍ شَفيفٍ من الرُّطوبةِ والَّذي طالَما راقَبَ الحياةَ بأهازيجِ الفَرح هُوَ الآنَ وَرَقَةٌ مُزَرْكَشَةٌ بالألوانِ والصُّور يَتَناقَلُها الغُرَباء في دائرةٍ عَجيبةٍ تَبْعَثُ على الغَثيان والريبة .

(٦)

تَمنَّيْتُ لو كُنْتُ نَمْلةً كَي أحْمِلَ أضعافَ وَزْني ، فَرُبَّما أستَطيعُ حينها أن أختَصِرَ هذه الرحْلةَ السيزيفيَّة إلى الطوابق العُليا ... فمنذُ أن تَبِعَني أطفالُ القَرْيَة بأناشيدهم الجميلة وآلاتِهم الموسيقية المميَّزة ؛ وأنا أحملُ الطوبَ والإسمنتَ إلى الطَّوابقِ العُليا عبرَ الدرجِ والسَّلالم ... أعلو حتّى أظنَّ أنَّني قد بَلَغْتُ عنانَ السماء ثمَّ أهبطُ حتّى أراني في العالم السفليّ .

كانَ يُلاقيني هابطاً يَتَصَبَّبُ عَرَقاً وأنا أصعَدُ السُلَّم . فَيَقولُ : " اعْرَقْ يا أبو الحشرات فالعَرَقُ طَريقُكَ إلى الخَلاص الأبديّ " ... يلْهَثُ بشِدَّةٍ ثمَّ يُقَهْقِهُ وَيُتابعُ مَسيرَهُ .

قالَ لي مَرَّةً وَنَحْنُ نَرْتاحُ قَليلاً لِشُرْبِ الشاي : " تَصَوَّر يا أبو الحشرات لو أنَّ كلَّ نقطَةِ عَرَقٍ تَصَبَّبَتْ مِنّي وأنا أصعَدُ وأهبطُ هذه الأدراج تَحَوَّلَتْ إلى نُقود ،إذن لَصِرْتُ مِن أثرى أثرياء هذه المدينة " وانفَجَرَ ضاحكاً.

كانَ شَريكاً بائساً ذلكَ الماردُ المسكين الذي انزلـق بـالأمس على سُلَّمِ العمارة ؛ فَتَهشَّمتْ تلـك الهالـةُ المضـيئة الَّـتي تُطـلُّ مـن عَيْنيه ، نامَ في فِراشِه الأبَديّ . وَرَأيتُ في وجهـه المُنْهَكِ خَلاصـاً لم يأتِ ؛ وجراحاً لم تلتئم ...

جاءتْ زوجتهُ بعدَ أيّامٍ تُطالبُ صاحِبَ العمـل بمـا تَجَمَّـعَ لِزَوْجها من أجْرٍ . فَرَمَقَها بنَظْرَةٍ عنكبوتيَّةٍ حادَّةٍ ، نَسَجَ حولهـا خيوط المهانة والاحتقار ، وَساوَمَها علـى آخِـر قَطْـرَةِ عَـرَقٍ نَزَفَهـا النَّسْرُ الطَّريح ...

(إتفـــوه) ثمَّ اسْتَدارتْ ذاهِبةً ...

ألقيتُ من يدي حِمْلاً جَديداً .

(إتفـــوه) ... واستدرتُ أنا أيضا ...

(٧)

أنذا ارْتَحِلُ مِنْ يَدٍ لأخرى كجاريةٍ جميلةٍ مزركشة بالألوانِ والصور ... يدٌ تودعُني في قاصةٍ حديديَّةٍ باردةٍ مُظْلِمة ، وأخرى تَضَعُني في جيب القميص لدقائق معدودة ، ثمَّ تَرْكُلُني لمصيرٍ آخر ...

أنذا استَمِعُ إلى الأحاديث الصريحة والملغوزة ؛ أقارنُها وأربُطُ بينها ، أحاولُ أن أفْهَمَ ... أتَحَسَّسُ ألَمَ البعضِ عِندما يُفارقُني ولامُبالاة البعض الآخَر عِندما يُلْقيني بعيداً ... أنذا أعرف قِصَصَ الكَثير مِنَ الناس ولا أحد يعرف قصَّتي .

(٨)

أوَّلُ دجاجة قَتَلْتُها بالسكِّين الحادِّ شَعَرْتُ بالدَّمِ يَتَوقَّفُ في عُروقي ، وَرُوَيْداً رويداً أقْنَعْتُ نفسي بهذا العمل، فالدَّجاج سَيموتُ على كلِّ حالٍ سواءً أعَمِلْتُ أنا هُنا أمْ عَمِلَ غيري ، وَسِوى ذلك فقدْ ساهَمْتُ في يوم من الأيّام بنفسي في تَناوُلِ لَحْمِ الدَّجاج ؛ فَماذا يَخْتَلِفُ الأمرُ الآن ؟؟

في أحَدِ الأيّام هَبَطَ سِعْرُ الدّجاج إلى أن ازدَحَمَ المحلُّ بالزَّبائن ، فَتَسابَقوا في استِعجالي لِذبح دَجاجِهم ، انزَلَقَ السِكّين عَلى إصْبَعي وكادَتْ تَقْطَعُهُ ... لم يُفَكِّرْ أحَدٌ بدَمي المُراق ؛ واستَمرّوا في استِعجالي . أصْبَحَتْ المهمَّةُ غايَةً في الصُّعوبةِ، فالذُّباب يَحْتاجُ إلى مجهودٍ كبير لِكَشِّهِ ، وإصبعي النازفُ مَلأ المكانَ دَماً حَتّى لَقَدْ شَعَرْتُ بأنَّ رأسي يكادُ ينفجرُ من شِدَّة الألم .

لمْ يُخْفِ الزَّبائنُ مَشاعِرَ الامتِعاض والقَرَف ، هَمَسَ أحَدُهُم لِصاحِبِهِ : " أُنظر ؛ لَقَد اختَلَطَ دَمُهُ بِدَمِ الدجاج ! ما الَّذي

يَضْمَنُ أنَّ هذا الرجل غيرُ مُصابٍ بالأيدز ! يُقالُ أنَّهُ عائدٌ مِن الخارج ... ".

وَبَيْنَما أنا مُنْهَمِكٌ في عَمَلي افْتَقَدْتُ هَرْجَ الزَّبائن . نَظَرْتُ حَوْلي فَلَمْ أجد أحداً، جاءَ صاحِبُ المحلِّ وكانَ عَددٌ كبيٌر من جُثثِ الدَّجاج مُلقىً حولي ... تنازلتُ لهُ عن راتب الشهر وَخَرَجْتُ دونَ أنْ أنبَسَ ببنتِ شفة .

أشاعَ صاحب المحلِّ بين الناس أنَّني مجنون ، وأنَّني نفَّذتُ مذبحةً جَماعيَّةً للدَّجاج في واحِدَةٍ من نَوباتي الخَطيرة .وقالَ أيْضاً أنَّهُ شاهَدَني غيرَ مَرَّةٍ وأنا أحادِثُ الدجاج أو أتشاجَرُ معَهُ ؛ أو أنْتَقي أجملَ دَجاجةٍ لأجْعَلَ مِنها مَلِكَةَ جَمال الدَّجاج !!! وأكثرُ من ذلك أنَّهُ شاهدني مرَّةً ـ على غَفْلَةٍ مِنّي ـ وأنا أُقَبِّلُ مَلِكَةَ الجَمالِ المزعومة عَلى مِنقارها !!!

(٩)

مَدَّ يَدَه إلى جيب قميصهِ واسْتَخْرَجَني ، ثـمَّ لَـوَّحَ بـي في الهواء أمامَ وَجْهِ جَليسهِ ذي البدلة السوداء والشعر نِصْفِ الأشيب : " بهذا أستطيع أن أفعل ما أريد ... دَعْكَ من كلِّ هذه الترهـات "

.

رَماني عَلى الطاولَةِ إلى جانِبهِ . ثمَّ نَهَضَ عَن الكُرسِيِّ ذي الظَّهر العـالي ، وأخَـذ يَتَجَـوَّلُ في الغرفـة : " كـلُّ هـؤلاءِ الَّـذين يُشْـبِعونَكَ خُطَباً وحِكَماً يَتَحـوَّلون أمـام هـذا إلى لا شـيء ، مُجَـرَّدُ حشرات ، وإنَّ هذه الخُطَبَ لا تَخـيلُ عَـلى أمثـالي، فقـد خَبِـرْتُ الحَياةَ جيِّداً ، وحَسَبْتُ عبر رحلتي الطَّويلةِ ثَمَنَ كلِّ شيء ... كُـلِّ شيء ".

حَدَّقَ الأشْيَبُ في وَجْهِهِ مُتَسائلاً : "حتّى صَداقَتُنا ؟"

صَمَتَ بُرْهَةً وهو مُسْتَمِرٌّ في التَّجْـوال في الغُرفـة ؛ كانـتْ عيناه الباردتان لا توحِيان بشيء : " إذا شِئْتَ الصـراحة ... حتّـى صَـداقَـتُـنا ، ولكنّي الآنَ غيرُ راغِبٍ في الشِّراءِ ولا البيع.

نَهَضَ الأشيَبُ مُطْرِقاً وَخَرَج ...

جَلَسَ وراء طاولته الكبيرة ثمَّ تَناوَلَني بيَدِهِ وَقَبَّلَني قائلاً : " مع السَّلامة " .

أنا بِدَوْري لمْ أفْهَمْ شَيْئاً في ذلِكَ الوقت ؛ فقد كان الشبّاكُ الزجاجيُّ الشفاف وراءَ الرجلِ يُفْضي إلى أفُقٍ لازورديٍّ ذكَّرني بأمّي الشجرة ... الرِّياحُ الدافئةُ وهيَ تَضْرِبُ ساقَها الفارعَ الطويل ، والتَشَبُّثُ بالأرضِ عَلى الرغمِ من قَطْعِ الساق وَتَشَظّي الحلم " .

(١٠)

" طيري يا أم عَلي طيري ... جيبيلي ثوب الحرير "

هكَذا كانَتْ فاطِمَةُ تُغَنّي بَيْنَما كانتْ (أم علي) تمشي بهُدوءٍ عَلى راحَةِ يَدِها الصَّغيرة ... أحياناً كانَتْ تطيرُ ... لم تَكُنْ تَعودُ إلى فاطمةَ بشيءٍ ، ولكنَّها كانتْ تُهْدي إليها دفءَ الألوانِ وَبَهْجَةَ الرَّبيع ، وربَّما كانتْ فاطمةُ تَشْعُرُ في أعماقِ نَفْسِها أنَّها تَسْبَحُ في بحرٍ من الحرير .

فاطمة ابنة الأعوام التسعة ومجموعةٌ من صاحباتِها الصغيرات كُنَّ يَجْمعنَ حبّاتِ البلوط ؛ بَيْنَما كنتُ مع رهطٍ مِن أصحابي نَضْرِبُ أغصان شجرةِ البلّوط بعُنْفٍ حتّى يَتَساقَطَ ثمرها البُنّيُّ المشْبَعُ بالصَّلابة ...

عندَما كنتُ أسْتَمِعُ راكضاً لأنشودَةِ أولادِ القَريَةِ " أبو الصراصير " لَمَحْتُ مَكانَ تلك البلوطة وَقدْ عَبَرَهُ شارعٌ إسفلتيٌّ عَريض ... ولولا أنّي كنتُ قدْ عَرَفْتُ أنَّ فاطمةَ قدْ تَزَوَّجَتْ وسكنتْ في المدينة الكبيرَة لَقُلْتُ أنَّها مازالَتْ هُنا تَلْعَبُ مع (أم علي)

ولقلتُ أيضاً أنَّ صوتها الرائعَ ما يَزالُ يَتَناهى إلى أذني " طيري يا أم علي طيري " ...

تعرَّفتُ إلى وَجْهِ فاطمةَ بصُعوبَةٍ عِندما شاهَدْتُها في السوقِ تَخْرُجُ من بابِ سَيّارَةٍ فارهةٍ ، ولا أعرفُ لماذا نَظَرْتُ عَلى الفور إلى راحةِ يدها التي كانت تمسك بها حَقيبة جلدِيَّةً سَوْداء ... كانتْ آخرُ رسالةٍ وَصَلَتْني من فاطمةَ عندما كنتُ في السنةِ الثالثةِ في الجامعة ، ذكَرَتْ لي أنَّ الكَثيرينَ مِمَّنْ يَدْرُسونَ في الخارج عادوا مُتزوِّجين وأنَّها لا تُحِبُّ الانتظار ...

الرجلُ الَّذي خَرَجَ مِن السيّارة الفارهة ـ ذاتِ السيّارَةِ ـ وَقَفَ قُرْبَ قَفَصٍ فيهِ عُصفورٌ جميلٌ وَسَأَلَ عن ثمنه ، قال صاحبه :"ليسَ للبيع " . لمْ يَكْتَرِثْ لهذه العبارة ؛ واسْتَخْرَجَ من جَيْبِهِ بعضَ النُّقود قائلاً :" أمُتَأكِّد أنتَ من ذلك " ، ثمَّ حَمَلَ القَفَصَ وسارَ معْ فاطِمةَ نحو السيّارَة .

أنا أيضاً لا أريدُ أن أفْهَمَ كلَّ شيء ، فأنا اليومَ في حالٍ آخر ... كلُّ ما أفْعَلُهُ هُوَ مُتابَعَةُ الراقِصَة ، حِمايَتُها مِمَّنْ لَعِبَت

الخمرةُ بعُقولِهم أو اشتدَّ عَلَيْهم شيطان المراهَقَـة ؛ فَظَنّـوا أنَّهُـم في (هنولولو) ... بكلِّ بساطةٍ أذكِّرُهُمْ بأنَّ غَرائزَهُمْ البَيولوجيَّة يَجِبُ أن تَبْقـى في كُمونِهـا الجميـل ... أنْ تَسْـتَقِرَّ في صـخور المفارَقَـة ... تَتَلَهّى في حَدَقاتِ العُيون ولا تَتَجاوَزُها إلى الأيدي مَـثلاً ، وهكَـذا ودونَ أنْ يَعْرفَ أحدٌ فَأَنا أعْمَلُ في صُـلْبِ تَخَصُّصـي العِلمـيّ : أمْنَـعُ الذباب من الاقتِرابِ من الحلَوى ، أساعدُ اللَّحَظاتِ في حَرْقِ سَطْوَةِ الزمنِ البائس ، وألوذُ بـدَوْرٍ يَخْتـارُني بَـدَلاً مـن أنْ أمـوتَ في دَوْرٍ أختارُه .

٢٠٠٣

الحِزام

لم يُدْركْ الصبيُّ في البداية سَبَباً لِتَحوُّل الثرثرةِ المُتبادَلَةِ بين المراجعين المنْقَسِمينَ زَرافاتٍ زرافات ؛ في صالةِ الانتِظار أمامَ عِيادَةِ الطَّبيب إلى ضحكٍ شديد . فكأنَّما أصبَحَتْ عُيونُهمْ عُيونَ بقر، وأشداقُهمْ مَناشيرَ تَقْبضُ على ساقِ شجرة .

وَلِلْوَهْلَةِ الأولى لم يَخْطُرْ للصبيِّ أنَّهُ كانَ مِحْوَرَ هذا الضَّحِك والصَّخَب الشَّديدين ، فهو في هذا اليوم بالذات يَرْتَدي سِروالاً من القِماش له العَديدُ من الجُيوبِ الَّتي يَستَطيعُ أنْ يَضَعَ يَدَهُ في أيٍّ مِنها وَيَرْفَعُ رأسَهُ فرحاً بهذه التَقْنِيَةِ الجديدة الَّتي طالَما انْتَظَرَ أنْ تَدْخُلَ حَياتَهُ .

كانَ الصَبيُّ بالأمسِ قدْ انْفَجَرَ باكِياً أمامَ أمِّهِ بعدَ طولِ كَبْتٍ ومَرارة ؛ إذْ أنَّ صَبْرَهُ قد نفذ ولم يَعُدْ يَحْتَمِلُ أنْ يَذْهَبَ إلى المدرسة وهو يرْتَدي بنطال (السترتش) ...

لقدْ أدركَ الصبيُّ أثرَ هذا النوع من البنطلوناتِ على مظهر من يَرْتَديها لِكَثْرَةِ ما راقَبَ القِلَّةَ منْ زُمَلائهِ الَّذينَ يَرْتَدونَ مِثْلَها ؛ فَهي تُبدي تجاعيدَ كثيرةً يَتَغَيَّرُ شكلُها على الدَّوامِ كالأمبيا ، وهيَ تَخْلو من الجُيوب خُلوّاً تامّاً ، كما أنَّ مطّاطَها الَّذي يُحيطُ بِخَصْرِهِ يُدعو إلى حُكَّةٍ مُستمرَّةٍ كَمَنْ أصيبَ بالجَرَبْ . على العكسِ تماماً ممّا يرتديه البعضُ الآخَرُ منْ زُمَلائهِ فَهُمْ يَنْعَمونَ بِسَراويلَ من القماشِ ذاتِ كَسْراتٍ ثابتةٍ وأنيقةٍ ، ولها جيوبٌ كثيرةٌ ، وَتُحيطُ بخُصورهم أحزمةٌ ليِّنةٌ من الجلدِ المُلوَّنِ ؛ وقدْ راقَبَهُمْ الصَّبيُّ كَثيراً وَهُمْ يَضَعونَ أيدِيَهُمْ في جُيوبهمْ ويَتَبَخْتَرونَ جيئةً وَذَهاباً ...

انتَشَرَتْ على وَجْهِ الأمِّ ابتسامةٌ حَزينةٌ وهيَ تَسْتَمِعُ لشكوى وَلَدِها ؛ وكانَتْ إذاك تُجْري حِسْبَةً بَسيطَةً استَبْعَدَتْ من خلالها احتمالَ شِراءِ بنطالٍ جَديدٍ بِسَبَبِ ظُروفِ الأُسْرَةِ القاسِية ، ولكنَّها وَجَدَتْ حَلاً آخَرَ ، فَسِروالُ الأبِ القَديمُ قَدْ يَصْلُحُ لهذِهِ الغايةِ إذا ما تمَّ تَقْصيرُ رِجْلَيْه ...

وَفِعْـلاً كـانَ السـروالُ جـاهِزاً في الصَّـباح ، ولكِـنَّ مُشْـكِلَةَ الحِزامِ لَمْ تَخْطُرْ في بـال الأمّ ، فَقَدْ كانَ خصر الوالِدِ يُساوي أضـعافَ خَصر الوَلَد، فَكَّرَتْ قَليلاً ثمَّ اسْتَلَّتْ خَيْطاً مِن أحَدِ الأدراجِ وَنَظَمَتْـهُ في عُرى البنطالِ حـولَ خصر الصبيِّ ، ثمَّ رَبَـطَتْهُ كَمـا يُـرْبَطُ خَـيْطُ الحذاء !!!

وعَلى أنَّ هذا السروال لم يُضِفْ إلى الصبيِّ أناقةً أو جَمالاً إلاّ أنَّهُ كانَ فَرحاً بـه ، وَخُصوصاً أنَّهُ الآنَ قادرٌ على أنْ يَغـوصَ بِيَديْـهِ في جُيوبِهِ ويَتَبَخْتَرَ جيئةً وذهاباً أمامَ زُمَلائهِ من الطلابِ .

تَهـامَسَ الطـلاّبُ غـامِزينَ ولامِـزين ، ولكـنَّ الصـبيَّ كـانَ مُنْشَغِلاً عَنْهُمْ بِجُيوبِ بنطالهِ الفضفاض وَبِما ألَمَّ بِهِ مِنْ الرشح .

وَلَمْ يَطُلْ بَقاءُ الصبيِّ في المدرسة ؛إذْ جـاءَ أبـوهُ لِيَصْـحَبَهُ إلى عِيادة الطبيب ...

* * *

ها ها ها . . . بخ بخ بخ

لمْ يُدْركْ الصبيُّ سَبَباً لهذا الضحك المفاجئ الَّذي تَعالى في صالَة الانتِظار أمام عيادة الطبيب إلاّ عندما شَعَرَ بِبُرودَةِ الَهواءِ وَهْيَ تَلْفَحُ فخذيه ، وَيَدا والِدِهِ تَرْفَعانِ بنطالَهُ الَّذي انزَلَقَ إلى أخَمَصِ قَدَمَيه وَتُعيدانِ رَبْطَ الخَيْطِ . . . تَماماً كَما يُرْبَطُ خَيْطُ الحذاء!

إحْدى النِّساء الجالِسات في الصالةِ أخَذَتْ تَخْلِطُ بَيْنَ الكُحَّةِ والضَّحِكِ الشَّديدين ، تَمايَلَتْ يَمْنَةً وَيَسْرَةً إلى أنْ سَقَطَ طِفْلُها الرَّضيعُ عَلى البلاط ؛ وَصَرَخَ صَرْخَةً مُدَوِّيةً ، فهاجَ المكانُ وماج ما بينَ ضاحِكٍ من الصبيِّ وراثٍ لحالِ الطفل الرَّضيع. . .

أمْسَكَ الصبيُّ بأطرافِ بنطالِهِ وانْدَفَعَ هارِباً . . .

وفي اليوم التالي ذَهَبَ إلى المدرسة وهو يرتَدي ذاتَ البنطال (السترتش) القديم ، لمْ يَكُنْ يَتَبَخْتَرُ في مِشْيَتِهِ ، ولَمْ يكنْ يَضَعُ يَدَيْهِ في أيِّ شيءٍ عَلى الإطلاق . لقد كانَ مُنْشَغِلاً عن الحكَّة الَّتي أصابَتْهُ في وسطه بِمُراقَبَةِ تِلْكَ التَّجاعيدِ الَّتي يَتَغَيَّرُ شَكْلُها كالأميبا .

١٩٩٥

أحلامُ الظلّ والنور

" عندما كان الشيطانُ في الخامِسَةِ مِنْ عُمْرِهِ
اعْتَدَلَ في سَريرِه رافِعاً رأسَهُ ، وطلبَ الكمان ـ لأوَّل مرَّةٍ
في حياتِه ـ حيثُ عَزَفَ عَلَيْه كَأفْضَلِ عازفٍ محترف " .

الساعةُ الآن الرابعَةُ إلاّ خمسِ دقائق ، مَوْعِدُ صَديقي بعدَ خَمْسِ دقائق . . . سَكَبْتُ إبريقاً من الماءِ في الحوضِ الصغير ؛ بينَما كنتُ أراقبُ الطَّريقَ . الجوريَّةُ بالأمسِ كانَ عَليها وردَتان حمراوان رائعتان ، أحَدُهُمْ قَطَفَ واحِدَةً منهُما ، آهِ لَوْ أعرِفُهُ. . . إذنْ لَقَطَعْتُ أنْفَهُ ،الياسمينةُ منذُ عامٍ أرْوِيها وَلَمْ تُزْهِرْ

،شارَفَ الرَّبيعُ عَلى الانتِهاءِ وَلَمْ تُزْهِرْ ،ومِئاتٌ مِنْ بُذورِ القُرُنْفُلِ زَرَعْتُها في الحوْضِ ، وَلَمْ تَنْبُتْ ، رَوَيْتُها بالماءِ كلَّ يوم، ولم تنبت ...

الرابعةُ وعشر دقائق ... لا بأس لو يَتَأخَّرُ نِصْفَ ساعة ، هذا هامشٌ معقول .

دَخَلْتُ إلى غرفتي ... مَضَتْ شُهورٌ وَلَمْ أقرأ أيَّ شيءٍ ، في خَزانَتي عَدَدٌ لا بأسَ بِهِ من الكتب ، لم أقْرأها جَميعاً ، ولكنّي في شوقٍ لِقِراءَةِ مَجْموعَةٍ مِن القِصص القصيرة الَّتي قرأتُ كُلَّ ما لَديَّ منها ، وَوَعَدْتُ نَفْسي بشراء غيرها ... وتتالت الشهور ... قسط البنك إيجار البيت ... فاتورة الماء ... الكهرباء ... إلخ ... إلخ ...

لستُ وَصَديقي نُخْلِفُ المَواعيدَ فَقَط ، قبلَ عامين وَقَفَ الرئيسُ الأمريكيُّ "كلينتون " أمامَ البرلمانِ على مِحوَر السينات : سَ ... سَنَرْفَعُ مُسْتَوى حياةِ الفردِ في هذه المنطقة ... سَنُعَوِّضُكُمْ عن سَنَواتِ الجوعِ والخوف ... سَيَتَذوَّقُ الجَميعُ ثِمارَ السَّلام ...

ما عَلينا ...

وَقَعَ نَظَـري عَلـى كِتـابِ الغَرائـبِ المُلقـى علـى الطاولـة : " عندما كانَ الشيطانُ في الخامسـة من عُمْرِهِ اعتدلَ في سَريرهِ رافِعـاً رَأسَهُ ، وَطَلَبَ الكمانَ ـ لأوَّل مرَّةٍ في حَياتِه ـ حيـثُ عَـزَفَ عَليـهِ كَأفْضَلِ عازفٍ مُحْتَرف " .

تُرى كيف يَكونُ عَزْفُهُ عنـدما يَبْلُـغُ المائـةَ مـن عُمْـرهِ ... أو حتّى الألف..؟!!

نَهَضْتُ عن الكرسيِّ ، ضَغَطْتُ على زرِّ التلفاز... لم يَعْمَلْ ... ضَـرَبْتُهُ بيـدي اليُمنـى ... باليسـرى... ظَهَـرَتْ الصـورةُ باهتـةً بالأبْيَـضِ والأسْـوَد ، أخَـذَ المـذيعُ يتحـدَّثُ عـن غـاراتٍ تَشُـنُّها إسرائيلُ على لُبنان ، مشاهدُ حيَّةٌ مِن الغـاراتِ ، نسـاءٌ يَصْـرُخْنَ ... أطفـالٌ غـارقونَ في الـدِّماءِ ، رجـالٌ يَبْكـونَ ... أشـلاءٌ في الشَّوارعِ... عُيون ... أظافر ... أيدي ... خصلات شَعر... ... أحـلام ... حياة ... ضربتُ التلفاز بيساري بشدَّة ... اختفتْ صَلْعَةُ المذيع الباهتة ...

رَجَعْتُ إلى كِتابِ الغَرائبِ :

" نيقولا باغيني ... عازفٌ مشهور ... قيلَ أنَّ أوتار كمانه كانتْ مَصنوعَةً من أمْعاءِ امرأةٍ قَتَلَها بِيَدَيْه ، وقدْ تَجَوَّلَ في أنحاء كثيرة من أوروبا ؛ يعزفُ الكمانَ فينشرُ الرعبَ في قلوبِ مستمعيه ، كانَ شَكْلُهُ غَريباً ؛ لَهُ وَجْهٌ أبيضُ كالطَّباشير ، وعيْنان حمراوانِ غائرتان ... وشَعْرٌ مُنْسَدِلٌ عَلى كَتِفيه ... وكانتْ ألحانُهُ شديدةَ التعقيد قلَّما استطاع المُحْتَرفونَ من العازفين أن يلعبوها ".

سَمِعْتُ طرْقاً على الباب ... الساعةُ الآنَ الخامسةُ إلاّ ربعاً ... فركتُ عيني ونهضتُ ... فتحتُ البابَ : إنَّها زوجَتي وابني الصَّغير ذو العام والنصف ، كَرْكَرَ الصغيرُ وأقْبَلَ مُتَهادِياً كَأنَّما يَتَدَحْرَجُ رافِعاً يَدَهُ إليَّ مُبْتَسِماً ، قبَّلتُهُ باشتياق ... ضَرَبَني بيدِهِ الصغيرةِ عَلى خَدّي ، حاولْتُ أنْ أمْنَعَ نفْسي منْ تَذَكُّر أطْفالِ لُبنان فانْحَرَفَتْ ذاكرتي إلى طفلٍ جاءَ مَعْ جَدَّتِهِ إلى مَكانِ عَمَلي قَبْلَ أيّام ، وَبدونِ مُناسَبَةٍ أشارَت الجدَّةُ إلى الطفلِ الَّذي رُبَّما

كانَ في السادسة من عُمْره ، وقالتْ : " استُشْهدَ أبوهُ في الحربِ وتَزَوَّجَتْ أمُّه ... يا لَقَسْوَتِها !!!" ... هكذا قالتْ ...

اسْتَرْخَيْتُ عَلى الكُرسيِّ ثانيةً ، ألقَيْتُ رَأسي إلى الوَراء ، انْسَكَبَتْ نُقْطَةُ عَرَقٍ عَلى أنْفي سَمِعْتُ أزيزاً ... إنَّها ذُبابَة ، وفي أقلَّ من ثانِيَةٍ كانتْ تُحَرِّكُ قَوائمَها برَشاقةٍ عَلى أنْفي... أخ خ خ . . .

ملعونٌ هذا الذُّباب ... وحدَه يَعْرِفُ مَواعيدَهُ جيِّداً ولا يُخْلِفُ أبداً ... يشمُّ رائحة الصيف ... رائحة العرق ... رائحة النَّتَن ... يَتسَرَّبُ من الثُّقوبِ الصَّغيرةِ ... من الشُّقوقِ الضيِّقةِ ... ويأتي ، وغَيْرُهُ لا يأتي من أوْسَع الأبواب ...

آ آ ه ه ه ... أشعرُ بالملل والنُّعاس ... ألقيتُ رأسي إلى الوراء ...

الساعةُ الآنَ الثامنةُ مَساءً ، لَقَدْ غَفَوْتُ طَويلاً ، كُنْتُ احْلُمُ ... عالَمٌ آخَر ... نفسُ مُستَوى النور في كلِّ مكان ،أقرب ما يكونُ إلى ليلةٍ مُقْمِرَةٍ ، عَلى أنَّني أعْتَقِدُ أنَّهُ لَوْ أتيحَ لي أنْ أنْظُرَ إلى السَّماءِ لَما رَأيْتُ قَمَراً ولا نُجوماً ، الشَّوارعُ خاليةٌ تَماماً ...

لا أذكرُ أنّي رَأيْتُ فيها سِوى ذلكَ الوجْـه الملائكـيّ الَّـذي يَفـيضُ حَناناً وحُبّـاً ... قـوامٌ مُتَوسِّـط الطـول ، مُكْتَنِـزٌ في غـيرِ إفـراط ، وشعرٌ مُسَرَّحٌ عَلى الطريقةِ الفرنسـية . عينـانِ عميقتـان وَوَجْـهٌ أبيضُ فيهِ حُمْرَةٌ أو رُبَّما سُـمْرَة ...

خاطَبَتْني بِصَوْتٍ مُخْمَليٍّ دافِئ :

" أما زلْتَ هُنا أيُّها المجنون ... منذُ زمنٍ طويلٍ وأنا أنْتَظِرُك ... نَذَرْتُ لَكَ مسحَةَ الحزنِ الَّـتي عَلـى وجهـي ، وَشُـعْلَةَ الحُـبِّ الَّتي في قلبي منذُ أنْ رَحَلْتُ إلى العالَمِ السـفليّ ... ولمْ تـأتِ ... يـا لَكَ مِنْ صَبورٍ مُثابر ... ! كمْ مرَّةٍ أغْناكَ مَنْظَرُ سُفْرَتِكَ البائسةِ عَـنْ تَناوُلِ الطَّعام ... وكمْ أخْلَفَتْكَ الحَياةُ المواعيد ... جِئْتُ قَبْـلَ قَليـلٍ مِن العالمِ السفليّ ، كانَتْ يورياس هانئةً في أحْضانِ حَبيبهـا ... وكانَـتْ قيثارَتُـهُ تُرْسِـلُ أجْمَـلَ الألحـان ... إنّـي أحِبُّـكَ فاحمِـل قيثارتك واتبَعْني ... احمل قيثارتك واتبعني ... احمل ... ".

لا ... مـا زالَ لـديَّ الكـثيرُ لأَفْعَلَـهُ ... مـا زال لـديَّ الكَـثيرُ لأَقولَهُ مِنْ أجْلِ الحَياة .. مِنْ أجْلِ كَرْكَرَةِ الأطْفال ...

ألقيْتُ رأسي إلى الوَراء ... سَقَطَتْ عَلى أنْفي نُقْطَةٌ مِن العَـرَق ... وفي أقلَّ من ثانية ؛ كانَتْ ذُبابـة تُحَـرِّكُ قَوائمَهـا عَلـى أنْفـي برَشاقة ، وَدونَ أيِّ حِساب ...هَوَيْتُ بضربة ساحقةٍ عَلى أنْفي ... أخ خ خ خ ...

صَرَخَتْ زَوْجَتي مِن الغُرْفَةِ الأخْرى ... ما بالُك ؟

ـ لا ... لا شيء... مُجَرَّدُ ذُبابة ...

١٩٩٦/٥/٦

جزيرة (البرنس) خالص

عِنْدَما بَلَّغَهُ مُديرُهُ بحَسْمِ ثلاثةِ أيّامٍ من راتِبهِ ، ابتَسَمَ برُعونَةٍ ملحوظة ، ولمْ يَتَفَوَّه بكَلِمَةٍ واحِدة ... لمْ يَتَحَدَّث عن الحافلةِ الَّتي يَسْتَقِلُّها وهْيَ تَجوب المدينة كامِلةً قَبْلَ أنْ توصِلَهُ إلى مَوْقِعِ عَمَلِه ، ولمْ يَتَحَدَّث عَنْ صالَةِ الأفراح المجاورة للمنزل والتي تُؤرِّقُ مَضْجَعَهُ بضَجيجها الَّذي يَسْتَمِرُّ حَتّى آخِرِ الليل ، وبالتَّأكيدِ لمْ يَأتِ عَلى ذِكْرِ جَيْبِهِ الخاوي حتّى مِنْ أجْرَةِ الحافِلة .

" غَداً عِندما أذهَبُ إلى جَزيرَتي ... أتَخَلَّصُ مِنْ هذِهِ الفَوْضى العارمة والمَظالِمِ الَّتي لا حَصْرَ لَها " .

وعِنْدَما اشتَكى عَلَيْهِ أحَدُ المواطنين مُدَّعِياً أنَّ (البرنس) قدْ شَتَمَ أباهُ وَعَشيرَتَهُ لَمْ يُبالغْ في الدِّفاعِ عَنْ نَفْسِه واكتَفى بكَلِمَةِ " كاذِب" .

" لَنْ يَكونَ في جَزيرَتي أمثالُ هذا الأفّاق ، سَأقْفِزُ مِثْلَ (طرازان) من شَجَرَةٍ إلى شجرة وأعوي مثل ذِئْب ، سَأجْلِسُ عَلى رأسِ جَبَلٍ إنْ أرَدْتُ استشرافَ الأفقِ البعيد وآوي إلى كَهْفٍ مُظْلِم إذا شَعَرْتُ بالعَجْز أمام شَفَقِ الغُروب وَضَبابِ البحر " .

قالتْ : " مالَكَ وَلِلْحُرِّيَّةِ تُعرِّضُ نَفْسَكَ لِمَزيدٍ مِن القُيودِ مِنْ أجْلِها ! وأولئكَ الَّذينَ يَصْنَعونَ السَّلاسِلَ والأصفاد هُمْ ذاتُهم يُعَرِّفونَها لك، ويُحَدِّدونَ جُدْرانَ سِجْنِك ، ألا تَقْنَعُ بما قَسَمَ المليكُ وَتَكُفُّ عَنْ تَعْرِيَةِ الأشياءِ الَّتي دَفَعوا أعْمارَهُم مِنْ أجْلِ تَزْيينِها في عُيونِكَ وعُيونِ كُلِّ الناس ".

قالَ : " حَقّاً إنَّ المُعادَلَةَ غايةٌ في الصعوبةِ وتَحْتَوي عَلى عَدَدٍ كَبيرٍ مِن المتغيَّراتِ لكنَّ صَمْتَ القُبور لَنْ يَحُلَّها بأيِّ حالٍ مِن

الأحوال ، وإنَّه لا بدَّ من الِحراكِ حتّى لَوْ كـانَ طَريقـاً إلى مَتاهَـةٍ أكْبَر ، وَلا بُدَّ مِن الحُـلم كَي يُطْـفِئَ لَظى الشوق إلى الخَلاص " .

" في جَزيرَتي لَنْ أسمَحَ لِغَيْرِ النَّوارسِ بأنْ تُحَلِّقَ في الأجـواء ، وَمَعاً سَـنَشْـرَبُ نَسيمَ المساء ونَبْتَلِعُ ثِمـارَ النشْـوَة ، سَأخْصِـفُ عَلى عوْرَتي مِن وَرَقِ الشَّجر وأنْبَعُ مَعْ شُروق الشمس مِثْلَ زَنْبَقَـةِ الحياة " .

الثلاثةُ : رَقَمٌ مشؤوم

الخَمْسَةُ : دائرية حَنونة

الاثنان : ما أجْمَلَها

لا بُدَّ أنْ أفوزَ هذه المرَّة ... وسـاعتَها لَـنْ يَحْـرِمَني أحَـدٌ مِـن حُلمي ...

استَخْرَجَ قِطْعَةً نَقْديَّةً مِنْ جَيْبِهِ وأعطاها لِبائعِ اليانصيب .

هاه ... هذه هي .. ٥٤٢٤٢

ـ " يا سَلام عَليك يا بيه دَه رَقَمْ مَيْخُرِّش الميَّه ... أنـا مُتَأكِّـد انك حَتْفوز بالجايزه الكُبْرى ... وحَناكُل الحَلاوَة سَوا " .

قالـتْ : " ألا تَـرى مَعـي بأنَّـك عَقَّـدتَها كَـثيراً ... الحِـراكَ الحِراك ... عَنْ أيِّ حِراك تَتَحَـدَّث ... إنَّ حـراكَ أبيـكَ قَـدْ جَعَلَـهُ يُطْلِقُ عَليك اسـم (بـرنس) لِتَكـون أمـيراً رومنسـياً حالِمـاً ، أمـاّ حِراكُكَ أنـتَ فَقَـدْ جَعَـلَ رفاقـكَ يُطْلِقـونَ عَليـك لَقَـبَ (خـالِص) لِمُجَرَّدِ احتِراقِكَ في مـا كـان ومـا يجـب أن يكـون، لِتَكُـونَ بهـذا أسطورَةً في الهَذَيان والحُلـم ، فَتَوَقَّـفْ يـا (بـرنس) خـالِص لعـلَّ رَشْفَةً مِنْ قَهْوَةِ التجّار والسَّماسِرَةِ تُعيـدُ إليـكَ عَقْلَـكَ المسـلوبَ في بلادِ العَجائب ".

قالَ: " يَكْفيني أنَّ دَمي راضٍ عَنْ عُروقي، وَدِماغي راضٍ عَـنْ جُمْجُمَتي ، وَيَدي راضِيَةٌ عنْ ذِراعي ، فأنا وإن لَمْ أرْفَعْ سِلاحاً في وَجْهِ الَجبابرَةِ لكِنّي لَمْ أمْضَغْ بلِساني حِكَمَهُم الحقيرة ولا أيَّـدْت بيَدي سَفالاتِهم المدمِّرة ... " .

ـ قُلْتُ لَكُمْ كَثيراً مِنْ غَيْرِ الممكن أنْ نَتَعامَلَ مَعاً ضِـمْنَ حُـدودِ لُغَـةٍ تَفْرضُها طَبَقَـةٌ أوْ طائفَةٌ أوْ فِئَةٌ ما ... لا بدَّ أنْ نُسَمّي الأشياء

كَما هِيَ دونَ مُوارَبَة لكي نَفْهَمَ ما نَقول ... لكي نبني الأفكار بِشَكْلٍ عَمودِيٍّ يُؤَدّي إلى نَتائجَ واضِحة .

انفَجَر الرِّفاقُ بالضَّحك .

ـ فِعْلاً أنَّكَ خالص .

ـ لا تَغْلَطْ ... (البرنس) خالص .

ضَحِكَ (البرنس) مُبدِياً عَدَمَ اهتِمامِهِ وأخْفى وَراءَ ذلِكَ الضَّحكِ نَشيجاً عَميقاً .

ـ لا بأس ... كيف نُمارسُ انسانيَّتَنا إذنْ ... إذا كانَ واحِدُنا يَسْمَعُ الآخَرَ بِعَقْلِيَّة الصَيّاد الَّذي يَبْحَثُ عَنْ فُرْصَةٍ لِيَنْقَضَّ عَلى الفَريسة ؟ كيفَ نُعَرِّفُ السَّعادَةَ إذا كانَتْ تَتَرَبَّعُ فوقَ ألوفِ الجماجِم ... ؟

ـ سامَحَكَ اللهُ يا خالِص كَيْفَ تُحَدِّثُنا في الفَلْسَفة في جلسَةٍ حِزْبيَّةٍ عَلى الرُّغْمِ مِنْ مَعْرِفَتِك بأنَّنا لا نُتْقِنُ غَيْرَ السِّياسَة .

ـ يا رفاق ألا تَعْرفونَ بأنَّ السِّياسة دونَ فلسفة تَنْقَلِبُ إلى دَعارة ؟

قالتْ : " هكَذا تَرَكْتَ الأحزابَ الَّتي أهْرَقْتَ دَمَكَ فيها . أنظرْ جَيِّداً أينَ أنتَ الآنَ وأينَ هؤلاءِ الَّذينَ وَصَفْتَهُمْ بضيقِ الأفُقِ يوماً ما ... ".

" في جَزيرَتي سَتَكونُ الحَياةُ كُلاًّ مُتَكامِلاً ، لَنْ أسْمَحَ لأحَدٍ أنْ يَحْتَكِرَ الأشْياء ... وَلَنْ ... ".

قالتْ : " إنَّكَ لِتَطْبيقِ هذا سَتَحْتاجُ إلى ألوفِ العَسْكَر لِمُعاقَبَةِ المخالفين ، وَسَيَقومُ هؤلاءِ بدَوْرهمْ وَعَلى الرُّغْمِ مِنْ أنْفِك بإعادَةِ تَعْريفِ الأشياء، وَسَيَفْعَلونَ ما حَرَّمْتَهُ أنْتَ ، سَتَجِدُ نَفْسَكَ في النِّهايَةِ تَدورُ في نَفْسِ الدائرة ... فماذا أنتَ فاعِل ... ؟ " .

كانَ خالِص يَسيرُ في شارعٍ مُزْدَحِمٍ يَرْتَدي قَميصاً مُهْتَرئا وقد تَلاشى أحَدُ كُمَّيْه ، وَعَلى رَأسِهِ طاقيَّةٌ انْقَلَبَ لَوْنُها الأحْمَرُ بفِعْلِ الأيّام إلى بُرْتُقاليٍّ باهِت، كانَ يُشَوِّحُ وَيُلَوِّحُ بيَدَيْهِ مُردِّداً : حقّاً ماذا سَأفْعَلْ ... الحُرِّيَّةُ... العَسكَر ... جَزيرَتي ... الحزب ...

تَوَقَّفَتْ بجوارهِ سَيّارَةٌ سوداءُ فَخْمَة ، أطَلَّ عَليهِ مِنْ شُبّاكِها رَجُلٌ يَرْتَدي بَدْلَةً سَوداء :

ـ أنْتَ (البرنس) خالِص ... هلْ هذا معقول ؟

ـ نَعَم ؟

ـ هَلْ تَذْكُرُني ؟

ـ لا

ـ هلْ نَسِيْتَ أيّامَ كُنّا في الحزب معاً ؟

ـ هاه ...(يَتَفَرَّسُ وجْهَهُ جيِّداً) نعم فأنتَ الَّذي كانَ يَعْرفُ السِّياسَةَ وَلا يَعْرفُ الفَلْسَفَة !

ـ نَعَمْ ... وَأنْتَ الَّذي انتَهى حُلمُكَ إلى جَزيرَةِ الشّارعِ الوَسَطية .

أقْبَلَ شَخْصٌ مِنْ بَعيدْ : أهلاً بمعالي الوزير! بيْنَما جَلَسَ خالِصٌ القُرْفُصاء عَلى حافَّةِ الَجَزيرَةِ الوَسَطيَّة .

٢٠٠٣

جامعو الدوائر الصفراء

صَفيرُ سَيّارةِ الشرطة الَّتي تلتَهِمُ الأرضَ بشكلٍ جُنوني ؛ يُخيفُني مُنْذُ الطفولةِ وَيُشْعِرُني بالارتِباك ، وقد قرأتُ مرَّةً أنَّ مَنْ يَخافُ مِنْ هذا الصَّفير لا شَكَّ يَكونُ مُجْرماً هارباً ... فلماذا أخافُ منهُ أنا إذن ؟؟

كانتْ هذه المسْألةُ مَطْروحَةً أمامي مُنْذُ زمنٍ بعيد ، والآن تبدو أكثر إلحاحاً ...

عُلى جانبي هذا الشارع الغائص بينَ جبلين شاهِقين بُيوتٌ مُلْقاةٌ بعضُها فوقَ بعض بشكلٍ عشوائيٍّ ومُهمَل مثل عُلَبِ الكبريت ؛ يَتَسَلَّلُ بينها دَرَجٌ ضيِّقٌ طويل يَتَفَرَّعُ لأعلى ثم أعلى ، ويَسيلُ عليهِ ماءٌ مُتَعفِّنٌ لَهُ رائحةٌ كريهةٌ ، ومجموعةٌ من الأطفالِ العراةِ يلهون ويلعَبونَ في تَحَدٍّ عَنيفٍ لهذهِ الظُّروف القاسية .

ومعْ أنّي لمْ أرَ في عُيونِ السائرين خوفاً أو ارتِباكاً إلا أنّي بقيتُ مُرتبكاً وخائفاً !!؟ ألقيتُ ثقلي عَلى سور مُنخَفِضٍ على جانب الطَّريق لأنالَ قِسطاً من الراحةِ ، كانَ هُنالك فتاةٌ مشلولةُ الأطرافِ مُلْقاةٌ على الرَّصيفِ وإلى جانبها طفلةٌ منفوشةُ الشعرِ رثَّة الثياب ، وكانتْ مجموعةٌ من الدَّوائر الصفراءِ تَتَبَخَّرُ مِنْ رأسَيْهما ؛ وَمِنْ رُؤوسِ أكثرِ المارَّةِ في ذلك الشارع ، ولعلَّ مثل تلك الدَّوائر كانَتْ تَتَصاعَدُ مِنْ رأسي أنا أيضاً .

لقد تعوَّدتُ السيرَ في شَوارعِ هذِهِ المدينَةِ منذ سنتين أو ثلاثة باحثاً عن عمل ، وكانوا دائماً يقولون :تعال غداً ، بعد غد ... الأسبوع القادم ... وهكذا ...

ثُمَّ إنَّ شيئاً لم يتغيَّر طَوال هذِهِ السَّنواتِ ، مازالتْ عُلَبُ الكبريت والمياهُ المتعفِّنة ؛ والدوائر الصفراء المتصاعدة من رؤوس المارَّةِ ، وتلك الفتاةُ ذاتُ الشَّعْر المنفوش وأخْتُها المشلولةُ ، وكَثيرونَ غَيري يَتَسَتَّرونَ بقميصٍ نظيف ، وما زالتْ تلك السكرتيرةُ الملطَّخة بألوانِ الدِّهانات والَّتي لا تَتَّسِعُ الدُّنيا

لعَجْرَفَتِها واحْتِقارها لكُلِّ مَنْ تَتَصاعَدُ مِنْ رأسِهِ الدَّوائرُ الصفراء ؛ لازالت تؤدِّي دور الحاجبِ في بلاطِ الخَليفَةِ ، ولكنْ هذهِ المرَّة بنَظَراتِها المتَعالِية وغَطْرَسَتِها العَجيبةِ لا بسيوفِ ورماحِ الجند ...

قَدَمايَ تَعِبَتا مِن السير ، والشارع الآن مليءٌ بمحلاتِ صِياغَةِ المجوهرات ، اللونُ الأصْفر ينبعث لامِعاً من وَراءِ الزُّجاج ، ولا أدري لماذا يكونُ الذهبُ نَفيساً في بلادنا ، إنَّهُ يذكِّرني بالصحراء الَّتي تُحيطُ بهذهِ المدينة إحاطةَ السِّوار بالمعصم ، وبتلك الدَّوائر الصفراء الَّتي لا تَنْفَكُّ تَتَصاعَدُ مِنْ رُؤوسِ الناس !!

رَأيتُ عَجوزاً جالِسَةً عَلى الرَّصيفِ ، يَتَنَقَّلُ نَظَرُها بين صندوقِ البندورة الَّذي أمامَها وبينَ المارَّة ؛ وَتَجاعيدُ وَجْهِها تَرْسُمُ خارطة مُعَقَّدَةً كَدَهاليز الوُصولِ إلى اللقْمَة .

ـ بِكَمْ كيلو البندورة ؟

ـ بعشرة قروش .

ـ عشرة قروش ... !! ولكنَّها ذابلة ...

ـ سبعةُ قروش ... خُذْها بسبعة .

ومضى ذلك المشتري الَّذي كانتْ تَتَصاعَدُ مِـنْ رَأسِـهِ الـدَّوائرُ الصفراء غيرَ آبهٍ بتَنْزيلاتِ العَجوز ، بَيْنَما خَـرَجَ رَجُـلٌ يَرْتَـدي مَلابسَ أنيقةً من محلِّ صياغة المجوهرات :

ألَمْ تَجِدي مَكاناً لِبَيْعِ هـذِهِ البنـدورة إلا أمـامَ مَحَلّـي أيَّتُهـا العجوزُ التَّعِسَة ؟

تَلَعْثمَت العَجوزُ وسالَتْ دَمْعَةٌ عَلى خدِّها سرْعانَ ما ضـاعَتْ في تلك الخارطة المعقَّدة من التَّجاعيد ...

ـ أيْنَ أذهَبُ ؟ كلُّهُمْ يَقولونَ كَما تَقول .

كُنْتُ قد اتَّكأتُ على سَيَّارَةٍ واقِفَةٍ أراقِـبُ مِـنْ بَعيـد ، ولكـنَّ رَجُلاً دَفَعَني وهو يَرْمُقُني بنَظْرَةٍ حادَّة ...

ـ لماذا تتَّـكِئُ عَـلى سَـيّارَتي أيُّهـا الفأرُ الضّـال ؟! !

الغريب في الأمـر أنَّ هـذا الرجـلَ والصـائغَ كِلاهُمـا لمْ يَكُـنْ يَتَصاعَدُ من رأسَيْهما أيُّ شئ على الإطلاق ...

صَحَوْتُ من ذُهولي عَلى صَفير سيّارةِ الشُرطَةِ الَّذي يَزْدادُ اقتراباً ،فارْتَعَدَتْ أوصالي رُغْماً عنّي ، سَمِعْتُ أحَدَ المارَّةِ يقول: إنَّه لا بدَّ أنَّ هُنالك سرقةً كبيرةً لأحَدِ مَحَلاّتِ الذَّهب ...

ظَهَرَت السيّارةُ وَتَوَقَّفَتْ أمام مَحَلِّ الصائغ ، وَخَرَجَ مِنْها شُرْطيانِ مُسْرعان :

ـ أَلَمْ نَقُلْ لَكِ أكثرَ منْ مرَّةٍ أنَّ البيْعَ عَلى الرَّصيفِ ممنوع ...

لَمْ تَنْبَس العَجوزُ لكنَّ دُموعاً غَزيرَةً تَساقَطَتْ بين تَجاعيدِ الخارطةِ المعقَّدة ... وَحَمَلَ الشرطةُ صندوق البندورة ، وَمَضَتْ سَيّارَتُهُمْ وَصَفيُرها المخيف ...

تَزايَدَ شُعوري بالخوفِ وَنَظَرْتُ حَوْلي فَلَمْ أرَ في وَهَجِ المدينةِ غيرَ الدَّوائرِ الصفراء تمتدُّ لِتَبْتَلِعَ كُلَّ شَيء... لكني بتُّ عَلى يَقين بأنَّ سيّارةً أخْرى ذاتَ صَفيرٍ قَويّ سَتَقْطَعُ المسافاتِ لِتَمْنَعَ الفتاةَ وأخْتَها ذاتَ الشَّعْرِ المنفوشِ من النَّوم على الرَّصيفِ ثانيةً ، وأنَّ سيّارةً ثالثةً سَتوقِفُني في مَكانٍ ما لأمرٍ ما .

لقدْ أيْقَـنْـتُ بأنَّهم مُغْرَمونَ بجَمْعِ أولئكَ الَّذينَ تَتَصـاعَدُ مِـنْ رُؤوسِهِمْ الدَّوائر الصفراء !!

١٩٩٠

قاعة فارغة

ـ أعْتَقِدُ أنَّ زَميلي يَقْصِدُ ...

ـ ليسَ مِنْ حَقِّكَ أنْ تَتَحَدَّثَ عمّا يَقْصِدُهُ زَميلُك .

وَجَّهَ الأستاذُ هذِهِ العِبارَةَ لي بحَنَقٍ وَعَصَبيَّة ، وسرعان ما اسْتَدارَتْ عُيونُ الطُلابِ جَميعاً باتِّجاهي ... الكرةُ في مَلْعَبي الآنَ ... مِنْ حَقِّي أنْ ارْفُضَ هذِهِ الدكتاتوريَّة الساحِقَة .

نَفْسُ هذا الأستاذ هو الذي ألقى خُطْبَةً عصماء في المحاضَرَةِ الأولى ؛ وشَدَّدَ عَلى أهميَّةِ مُشارَكَةِ الطالبِ وتَفاعُلِهِ في مادَّة المساق ؛ وأنَّ دَوْرَهُ كأستاذٍ جامعيٍّ يَتَلَخَّصُ في توجيهِ قِراءاتِ الطلاب وحِواراتِهِم المثمرة والمفيدة ، وخصوصاً أنَّ المادَّةَ الَّتي يُدَرِّسُها هي الأدب .

ليسَ هذا فقط ...

لقدْ شارَك بالأمسِ في ندوةٍ مفتوحة تَحَدَّثَ فيها مَعْ عَدَدٍ مِن الأساتذة عن الفارق بين التعليم المدرسيّ والتعليم الجامعيّ ، قالَ أنَّ التعليم الجامعيّ يجب أن لا يَنْزَلِقَ إلى ما انزلق إليه التعليمُ المدرسيُّ من تَلقينٍ مُباشر واستبدادٍ في الرأي ، يَجِبُ أنْ يُرَكِّزَ التعليم الجامعيّ على دعم شخصيّة الطالب ؛ واكتشاف قدراته بكلِّ الوسائل الممكنة ، يجب أن تَكونَ حِصَّةُ الطالبِ في المحاضرة أكبَر من حصَّة المدرِّس .

وهكذا زاوَدَ الأساتذة جميعاً في تلك الندوة على شِعاراتِهم الَّتي طَرَحوها ... شَخصيَّة الطالب ... الحوار البنّاء ... الديمقراطيَّة ... الخ ... الخ ...

وها هو الآنَ للمرَّةِ العاشرةِ يَخْلعُ نَظَّارَتَيْهِ الكثيفتين وَيَقْفِزُ منْ وراء طاولتهِ وكَأنَّما هو ذئبٌ يَهوي عَلى فريسةٍ سَهْلَة ... وكلُّ هذا لماذا ... لِمُجَرَّدِ أنَّني حاولتُ أن أدافِعَ عَنْ رأيِ زَميلي الَّذي رَفَضَهُ الأستاذُ بشدَّة وَجَزَمَ أنَّه خاطِئ ...

ليسَتْ هذِهِ أوَّلُ مَرَّة يَسْخَرُ فيهـا مـن آرائنـا ، لقـد رَمَقَـني بـالأمسِ بنظـرة عَميقـةِ السُّـخريةِ عِنـدما تَحَـدَّثْتُ عـن النزعـةِ الوُجوديَّةِ في النصِّ الَّذي دَفَعَ بهِ إلينا ، وقالَ لي : اصْمِتْ يا هذا ، فماذا تَعْرفُ أنتَ عَنْ الوُجوديَّة ...

ما أسخَفَني !!

كـانَ يَجـبُ أنْ أدْركَ المسـافةَ بـينَ مـا يُقـالُ في النَّـدواتِ والمحاضراتِ العامةِ والصُّحفِ والمجـلاّتِ وبـيَن مـا هـو حـادِثٌ فعلاً ...

النظريَّةُ شيءٌ والواقعُ شيءٌ آخر ...

الغَريبُ أنَّ أستاذي قد أبْدى إعجابَهُ بقُـدْرَةِ نجيـب محفـوظ الفذَّة في بناء شخصيَّة السيِّد أحمد عبد الجوّاد ، وركَّز على فكرةِ الازدواجيَّةِ الَّتي رأى أنَّهـا صِـفَةٌ سـلبيةٌ طـاغيةٌ في الشخصـيَّةِ العربية ؛ وربَّما تكونُ أهمَّ أسبابِ تخلُّفِ الأمَّةِ وانهيارها ...

هِهْ ... كيف لم يَنْظُرْ أستاذي في المرآة !!

ـ لماذا تَصْمِتُ ... ألديكَ شيءٌ آخر ؟

صَحَوْتُ مِنْ ذُهولي على هذا السُّؤال الَّذي تفوحُ منـهُ رائحـةُ السخرية ، واستَدارَت العيونُ نَحْوي من جَديـد ، كانَـتْ أشـداق أستاذي مُنْتَفِخَـةً وكأنَّهـا تَنْطَـوي عَلـى أفٍّ ثقيلـة ، تمنَّيـتُ لـو أستطيعُ أنْ أمزِّقهُ إرباً .. إرباً .. ولكن ..

ـ إنَّـك تُفسـد عَلَـيَّ مَنْهَجـي في التـدريس ، اسْحَب المسـاقَ وأرحْني مِنْ مُشاكَساتِك ...

هه ... مَنهَجُك !! أيُّ منهجٍ هذا ؟ إنَّـكَ تُلْقـي عَلينـا آراءَكَ وَكَأنَّها نَواميس الطَّبيعةِ الثابتـة الَّـتي لا تَبْـديل لهـا ، وتَـبْطِشُ بكُلِّ مَنْ يُعـارضُ أو يُنـاقِش ... وكيـفَ أسحب المساق؟ إنَّ ذلـك يَعْـني أنْ أدفَـعَ الرُّسـومَ مـرَّةً ثانيـةً ، وأنْ يَتَـأخَّر تَخَرُّجـي مِـن الجامعة ... زوجَتي تَنْتَظِـرُ أنْ أشـتَري لهـا ثوبـاً جديـداً ، وأن تُواظِبَ على زيـارَةِ عِيـادَة الطبيـب ، وجِلـدي يَنْتَظِـر أن يَكْسـوهُ قَميصٌ خالٍ من الخُدوش والجُروح ، ولكنْ هيهات فَأنـا لا أنْفَـكُّ أعَلِّلُ نَفْسي وأعِدُ زوجتي بينمـا يـذهبُ راتـبي الصـغيرُ للرُّسـومِ والدَّفاتر والكتب والذَّهاب والإياب .

ليْتَكَ يا أستاذي تَعْرفُ أنَّ الكثيرين من زملائي الـذينَ كـانَ واحِـدُهُمْ يَنْقُـرُ حُفْـرَةً في ظَهـري لِكـي يَغُـشَّ مِنّـي في الامتحـان يُحَضِّرون الآنَ لِنَيْلِ دَرَجَةِ الدكتوراة ، لا لِشيء إلا لأنَّهم يملِكون ما يَدْفَعونَهُ لِهذِهِ الجامعات الَّتي لا تَفْتَحُ ذِراعَيْها إلاّ لمن يَدْفَعون ...

وسرعان ما تَمَثَّلَتْ أمامَ عُيوني صورةُ صَديقي بشَعْرِهِ الطويلِ المتَجَعِّد ومَلابسِهِ القَديمةِ وذقْنِهِ الَّذي غابَتْ عَنْهُ الحِلاقَةُ أسابيعَ طويلة ... لقد جَرَّب كُلَّ أنواع العَمل لِيَقومَ بمصاريف الدِّراسـة في الجامعة ؛ عَمِلَ عَتَّالاً وَجَرْسوناً وحتَّى عامِل تَنْظيفات ...

بالأمس رَأيْتُهُ وَسَألْتُه إذا كانَ قَدْ سَجَّلَ للدِّراسـةِ في الفصـلِ القادم ، نَظَرَ إليَّ بعَيْنَيْهِ الغامِضَـتَيْنِ الحـزينتين ـ رَأيـتُ فيهمـا شيئاً يُشْبهُ الدُّموع ـ وقال : كلُّ ما جَمَعْتُهُ مِنْ عملِ ثلاثـة شـهور لا يَكْفي لدفعِ الرُّسوم ..

ـ هاه ما لَكَ تَصْمِت ...

قـالَ ذلـكَ وهـو يُعيـدُ تَغْطِيَـةَ عَيْنَيْـهِ السـاخرتين بـذاتِ النظارتينِ ... كِدْتُ أن أمزِّقَ قَميصي مِـن شِـدَّةِ الغَـيْظ وغَمْغَمْـتُ بهدوء:

ـ لا ... لا رَغْبَةَ لي في الَحديث .

ـ هذا أفْضَل ...

اسـتدارَتْ عَنّـي العُيـون ... وتَغَلْغَـلَ في جـوفي إحسـاسُ بـأنَّ القاعةَ فارغةٌ إلاّ من صورَةِ صَديقي وَهو يَجوبُ شَوارعَ المدينةِ ليلاً لِيَجْمَعَ سَلاّتِ المهملاتِ أمامَ بُيوتِ زُمَلائِهِ الَّذين يَنْعَمونَ بساعاتٍ هادئةٍ أمامَ كُتُبهمْ ودفاترهم.

١٩٩٦

خصخصة

ـ أسرع يا ابن المجنونة ... لقد تأخَّرنا.

صاحَ رجلٌ في الخمسين من عمره وهو يهمُّ بالمسير ، ويُوضِّبُ كوفيَّته فوقَ صلعتهِ ، بينما كانَ الصبيُّ يَفْرُكُ عَيْنيهِ بشدَّة ، وَيُزيلُ القَذى المتجمِّع حولهما ... جرَّت الأمُّ الصبيَّ بشدَّة نحو المطبخ ، وقامَتْ بتَدْليكِ وَجْهه بالماء بيدها الكبيرة قائلةً " سَتَذْهَبُ مع أبيكَ إلى العاصمة فلا تُسبِّب له المتاعب " . هزَّ الطفلُ رأسَهُ وَنَظَرَ إلى أمِّهِ نظْرَةً بَلْهاءَ تَنُمُّ عَن عَدَم الفَهم .

كانَ الأبُ قَد أجَّلَ هذهِ المهَمَّة طَويلاً حَتّى أنَّه لمْ يَعُد يَجدُ حُجَّةً للتأجيل ، قال للصبيِّ : "اتبعني أيُّها الجحشُ الصغير " ، فَمَشى الصَّغيرُ وهو يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ بينما كانَ الأبُ يَشُدُّ عَلى سيجارة (الهيشي) ويكحُّ بشدَّة ثمَّ يبصقُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال .

انتَفَضَ الباصُ القديمُ واهتزَّ اهتزازاً شديداً كأنَّما هو جَمَلٌ يَنْهَضُ عن الأرض، ثمَّ انطَلَقَ إلى الأمام مُحْدِثاً جَلَبَةً وضَجيجاً ، وأخَذَ الركَّابُ يَتَجاذَبونَ أطرافَ الحديث بصوتٍ مرتفع بينما زَمْجَرَ الرجلُ ناظراً إلى الصبيِّ : " هذا ما أناله منك يا ابن الكلب ... وجع الرأس فقط ، رأسُكَ هذا الذي يُشبه رأسَ الضَّبع ، وعيناكَ اللَّتانِ لا تَنْفَكّانِ تُنْتِجانِ القَذى ورائِحتك النَّتِنة ، فأنتَ بكلِّ بساطة ورغمَ أنَّك قد تَجاوزتَ السابعة من عُمرك ؛ مازلتَ تبولُ وأنتَ نائم فَتُبلِّلُ فِراشَك وثيابك ... وتُرْسِلُ رَوائحَ أشدَّ نَتَناً وقَرَفاً من مزابل القرية ... ماذا أفعلُ بك أيُّها الحمار ، لقد ضَرَبتكَ حتَّى ازرقَّ جلدُكَ ؛ وما أفاد ذلك شيئاً ، وَعَرَضْتُكَ عَلى الوليِّ الصالح عبد المعين ولم تَنْفَع زُجاجتان من بَوْلِهِ الطاهر مَسَحْنا بهما رأسك وجسمك هذا ... ماذا أفعل ؟ ثَلاثةُ أيَّامٍ وأمُّكَ الكاهنةُ تفخُّ فوق رأسي مثل أفعى :" خُذْهُ إلى طبيب مختص ولا أدري عليها اللعنة من أين جاءت بهذه الكلمة "مختص" !

كانَ الرجلُ يَضْغَطُ بينَ الفينةِ والأخرى على أسفلِ بَطْنِه وقد لاحظ الصبيُّ ذلك ولكنَّه لم يجرؤ على سؤال والدِه عَمّا إذا كان يُعاني مِن شيءٍ ما . حافَظَ الطفلَ على نظرتِهِ البَلهاء مُراقباً شاربي والدِهِ وهُما يَهتزّانِ مع حَرَكَةِ الشَّفتين بما يُشَكِّلُ إيقاعاً مُنْتَظَماً يُذكِّرُهُ بحَرَكَةِ الذُّبابِ الرَّشيقَةِ حَوْلَ قِطْعَةِ الحَلوى ! هِهْ ... قطعة حلوى ؟ لقد مَضَتْ شُهورٌ طَويلةٌ وهوَ يَنْتَظِرُ الموسِمَ لِكَي يَحْظى بقطعة حلوى ، وعندما جاءَ الموسم انقبضَ وَجْهُ الأبِ وقالَ إنَّ عَلينا أن نَنْتَظِرَ عاماً آخَرَ من التَقَشُّفِ والصَّبر ،وشَرَحَ لِجارنا أبو محمَّد آسِفاً كيفَ أنَّ ثَمَنَ المحصولِ لم يكفِ لِمَصاريفِ الزِّراعةِ الَّتي دَفَعَها طوالَ العام دَيْناً بدَيْن ... ألقى الصَّبيُّ رأسَهُ إلى الوَراء تاركاً جَسَدَهُ يَتَلَذَّذُ باهتِزازاتِ الباص لأعلى ثمَّ أعلى بما يجعل القلبَ يُهَوِّمُ في فراغٍ بينما كانَ الوالدُ يُثَرثِرُ بين الفينةِ والأخرى بأحاديث كرَّرها مِراراً .

تَوَقَّفَ الباصُ في مُجَمَّع المدينة فَنَهَرَ الأبُ الطفلَ الَّذي غَلَبَ عَليه النُّعاسُ :" انهض يا حمار أهذا وقت النوم ؟ " . كانتْ

أعصابُ الأبِ مُتَوتِّرةً إذْ أنَّهُ مُنْذُ أنْ تَحَرَّكَ الباص من القرية كـانَ يَشْعر برغبةٍ مُتَزايدة في التَبَوُّل ، كانَتْ تُلِحُّ عليـهِ هـذِه الحاجَـةُ طوالَ الطَّريق فَيَضْغَطُ عَلى أسفلِ بطنه صـابراً ومُكـابراً ، وعنـدما وقف الباص في المدينة قال في نفسه: " يا فرج الله " ، أمْسَكَ بيدِ الصَّبيِّ وأخَذَ يَجُرُّهُ وَراءَهُ كما لو كـان شـوالاً مـن الـتِّبن ، كانـت مِشْيَةُ الأبِ مُضْطَربةً وَغَيْرَ مُنْتَظمة .

تَلَفَّتَ حَوْلَهُ وقدْ أخَـذَتْ عُيونُـه تَجْحَـظُ مِـنْ رأسِـه ... آه ... تلكَ هِي الحَمّاماتُ ... شَـحَطَ الصَـبيَّ وَراءَهُ مُسْـرعاً وَذَرَعَ الشـارعَ بخطواتٍ عَريضة ، ولكـنَّ صَـوْتَ كـوابح إحـدى السـيارات وهـي تقتربُ مِنهُ جَمَّدَهُ في مَكانه ، تَوَقَّفَ لِوَهْلَةٍ،وَلكنَّ حاجَتَهُ الملحَّـة دَفَعَتْهُ نحوَ الحَمّامات بشدَّة ...

قالَ للصبيِّ :" انتظر هنا " .

ودونما أيِّ تفكيرٍ دخـل مـن بـاب الحمامـات وكـان مـا زال يُفكِّر : كيف لو ضَرَبَتْهُ السيَّارة ... شيءٌ ما أقبلَ عليهِ من داخـلِ الحمامات وهو يُشوِّحُ وَيُلَوِّحُ مُهَدِّداً وصارخاً ! إنَّها عجوزٌ شمطاء

ربَّما في السبعين من عمرها تَـرْبُطُ إزاراً حـولَ وسطها وتَصْـرخ : هذِهِ حمّامات السيِّداتِ أيُّها البغل ...

تَجَمَّـدَ الرجـلُ في مَكانِـه ثانيـةً ، واسـتغرقَ بضـعَ ثـوانٍ في استيعابِ ما يَحْدُث ، وسرعانَ ما غطّـى وَجْهَـهُ بيديـه واسـتدارَ خارجاً ، فَواجَهَ ضَجَّةً وَجَلَبَةً شَديدتين في الخارج ، كـان سـواقو (السـرفيس) قـدْ اسـتخرجوا بسـرعةِ الـبرقِ وَبشَـهامَةِ فُرْسـانِ العُصـور الوُسـطى هَـراواتِهم وعِصِـيَّهُمْ مِـنْ سَـيَّاراتِهم وأقبلـوا مُزَمْجرينَ وَمُهَدِّدين :

ـ ماذا تريدُ مِنْ حَـمّامات النسـاءِ أيُّها الماجن ؟

ـ أتَظُنُّ الأمور (سَبَهْلَلا) ؟

وهكذا تَمَسْمَرَ الرَّجُلُ في مَكانهِ وانعَقَدَ لِسانُهُ حيـثُ اجتمـعَ حولهُ عَدَدٌ كبيرٌ من طالِبي الأجْر والمغفرة ... أولئـك الـذين كـانوا يشيحون بوجوههم عنهُ عندما كان يَبْحَثُ عن الحمامات .

ـ صَ ... صَ .. صدِّقوني لا أعرفُ أنَّهُ حمّامُ النِّساء ...

كادَ أنْ يَهْوي عَلَيْهِ أحدهم بهراوة ثقيلة ، ولكنَّ آخرَ هَدَّأ مِنْ حَرارةِ الشهامة وتَلَقَّى الهَراوَةَ بيدِه قائلاً : " ربَّما يكون هذا الرجل صادقاً فليَقْطَع تَذْكِرَةً وليَدْخُل إلى حمامِ الرجال ... ".

صاحَ أحَدُ الواقفين : ماذا ... ؟ تذكرة !!

صاح آخر : " ألم تسمعْ يا ولدي بالخَصْخَصَة ؟!

لم يَعُدْ هُنالِكَ أيُّ داعٍ للتذكرة أو حتّى لِدُخول الحَمّاماتِ ، لَقَدْ تَبَلَّلَ بنطالُ الرجل وانفلَتَتْ كلُّ أدَواتِهِ في ضَبْطِ نَفْسِه ، وَعَلى الرغم من خوف الصبي الذي كان جالساً على الرَّصيف على أبيه وحُزنه من أجلِه إلا أنَّه كانَ يُغالبُ رَغبةً شديدةً في الضَّحك بل يَكادُ أنْ يَنْقَلِبَ على ظَهْرِهِ من شدَّة الضحك .

١٩٩٦

علي طه النوباني

جامعو الدوائر الصفراء

أنا أيضاً لا أريدُ أن أفْهَمَ كلَّ شيء ، فأنا اليومَ في حالٍ آخر... كلُّ ما أفْعَلُهُ هُوَ مُتابَعَةُ الراقِصَة ، حِمايَتُها مِمَّنْ لَعِبَت الخمرةُ بعُقولِهِم أو اشتدَّ عَلَيْهِم شيطان المراهَقَة ؛ فَظَنّوا أنَّهُم في (هنولولو) ... بكلِّ بساطةٍ أذكِّرُهُمْ بأنَّ غَرائزَهُمْ البَيولوجيَّة يَجبُ أن تَبْقى في كُمونِها الجميل ... أنْ تَسْتَقِرَّ في صخور المفارَقَة ... تَتَلَهّى في حَدَقاتِ العُيون ولا تَتَجاوَزُها إلى الأيدي مَثلاً ، وهكَذا ودونَ أنْ يَعْرِفَ أحدٌ فَأنا أعْمَلُ في صُلْبِ تَخَصُّصي العِلميّ : أمْنَعُ الذباب من الاقتِرابِ من الحَلوى ، أساعدُ اللَّحَظاتِ في حَرْقِ سَطْوَةِ الزمنِ البائس ، وألوذُ بدَوْرٍ يَخْتارُني بَدَلاً من أنْ أموتَ في دَوْرٍ أختارُه .

تلفاكس ٥٥٢٢٥٤٤ • ص . ب : ٩٥٠٢٥٢ عمّان ١١١٩٥ الأردن

ISBN 9957-09-177-8 (ردمك)